

عنوان البرنامج: مدخل لدراسة التصوف
الوحدة الأولى: مقدمات منهجية لدراسة التصوف
الدرس الثالث: أخلاقية الخطاب الصوفي
اسم المحاضر: الدكتور عبد الصمد غازي

أخلاقية الخطاب الصوفي

1 - التصوف تحقق أخلاقي:

ذلك أن الأخلاق التي هي أبرز سمات هذا التراث سمت أصيل للإسلام ذاته، إذ من المقرر أن المضمون الأخلاقي للتصوف مستفاد من أصول الدين الإسلامي الذي نشأ في كنفه، بل إن البعثة المحمدية تتلخص مقاصدها الأصلية في ترسيخ مكارم الأخلاق كما هو لائح من قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»¹، كما تتلخص مكارم الرسول صلى الله عليه وسلم وكمالاته في كونه على خلق عظيم ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾²، أي على دين عظيم أي الإسلام حسب بعض التفاسير.

وعلى مقتضى هذا الوعي بالمقاصد الأخلاقية للتجربة الصوفية، تقرررت مجمل تعاريف العلماء للعلم الصوفي، وتواطأت على نعتة بكونه العلم الذي يعنى بمكارم الأخلاق، حيث «اجتمعت كلمة الناطقين في هذا العلم على أن التصوف هو الخلق، (...) إن هذا العلم مبني على الإرادة فهي أساسه ومجمع بنائه، وهو يشتمل على تفاصيل أحكام الإرادة وهي حركة القلب؛ ولذا سُمِّي بعلم الباطن كما أن علم الفقه يشتمل على تفاصيل أحكام الجوارح ولهذا سموه علم الظاهر»³ كما يقرر الكتاني⁴ الحقيقة

1. رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنظر مسند الإمام أحمد، حديث: 8952، 512/14.

2. القلم: 4.

3. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقي، ط2: 1973 م، دار الكتاب العربي، بيروت، 371-316/2.

4. أبو بكر محمد بن علي بن جعفر الكتاني، شيخ الصوفية، المجاور بمكة، أخذ عن أبي سعيد الخزاز وغيره، وهو مشهور، قال السخاوي

الأخلاقية للتصوف بأوضح عبارة بقوله: «التصوف هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في التصوف»⁵.

2 - التصوف صيرورة تخليقية:

إن التزكية وأدب النفس بتحليلتها بالفضائل وتخليتها من الرذائل -وهي أبرز غايات التصوف- حقيقة شرعية قررها الكتاب والسنة، وطبقها الرسول صلى الله عليه وسلم، وصحابته والتابعون ومن سار سيرهم، وكان لذلك كله أثره في الممارسة الإسلامية في سائر أبعادها عبر أصل التزكية، يقول أبو الحسن الندوي مقروفاً هذا المعنى: «و(لو) رجعنا إلى الكتاب والسنة وعصر الصحابة والتابعين، وتأمنا في القرآن والحديث، وجدنا القرآن ينوه بشعبة من شعب الدين، ومهمة من مهمات النبوة يعبر عنها بلفظ «التزكية»، ويذكرها كركن من الأركان الأربعة التي بُعث الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم لتحقيقها وتكميلها: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾⁶، وهي تزكية النفوس وتهذيبها وتخليتها بالفضائل وتخليتها من الرذائل، التزكية التي نرى أمثلتها الرائعة في حياة الصحابة رضوان الله عليهم وإخلاصهم وأخلاقهم، والتي كانت نتيجتها هذا المجتمع الصالح الفاضل المثالي، الذي ليس له نظير في التاريخ، وهذه الحكومة العادلة الراشدة التي لا مثيل لها في العالم»⁷.

إن تحديد الهدف والدخول إلى المضمون دون الوقوف عند الأشكال والأعراض، يعد ذا فائدة منهجية إجرائية عظيمة تتجلى أساساً في كون الانضباط به والالتزام به يفيد في تحقيق الالتقاء والتوافق على الحقيقة الشرعية للتصوف التي «هي الكيفيات الباطنية التي تصاحب الأعمال والهيئات عند أدائها، وهي أخلاق إيمانية هي من الشريعة بمنزلة الروح من الجسد، والباطن من الظاهر وتندرج تحت هذه العناوين تفاصيل وجزئيات وآداب وأحكام، تجعل منها علماً مستقلاً وفقها منفرداً»⁸.

في طبقاته: قال المرتعش: الكتابي سراج الحرم، صحب الجنيد، والخزاز والنوري، وأقام بمكة مجاوراً إلى أن مات بها سنة 322 هـ. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (د.ط.ت). 296/2.

5. مدارج السالكين، 307/2.

6. الجمعة: 2.

7. ربانية لا رهبانية، لأبي الحسن الندوي، ط1: 1421 هـ - 2000 م، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت. ص 14-15.

8. ربانية لا رهبانية، ص 16-17.

وباعتبار هذا الملحظ يجد الدارس عبارات العلماء على اختلاف مشاربهم، متقاربة بل متواطئة على هذا المضمون المقوم لحقيقة التصوف، فقد قرر هذه الحقيقة ابن القيم⁹، وابن خلدون¹⁰، والقشيري، وغيرهم، مشيرين جميعاً إلى أن إطلاق لفظ الزهاد أو العباد أو الصوفية، أمر له ظروفه التاريخية وجوداً ودلالة، وذلك لا يقدر في حقيقة المسمى.

إن النظر إلى التصوف كحقيقة مضمونية تضرب جذورها في مصادر الإسلام الأصلية، وتحدد معالمها في سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم، يوفر على الباحث الانشغال المتكلف بالخلاف حول أصل التسمية، هل هو الصوف أو الصفة أو الصفاء أو صوفياً؟، وغير ذلك من القضايا المتكلفة التي تحجب الباحث عن تبين الحقائق الجوهرية للتصوف، وتحول دون تمثلها سلوكياً في حياة الفرد والمجتمع وهذا ما أشار إليه الندوي بقوله: «ليس لنا الآن إلا أن نقرر الحقيقة، ونتحرر من القيود والمصطلحات، ومن النزعات والتعصبات، ولا نفرّ من حقيقة دينية يقررها الشرع ويدعو إليها الكتاب والسنة، وتشتد إليها حاجة المجتمع والفرد لأجل مصطلح مُحدَث أو اسم طارئ دخيل».¹¹

-
9. (691 هـ - 751 هـ) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، أبو عبد الله، شمس الدين، أحد كبار العلماء. مولده ووفاته في دمشق. تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شئ من أقواله، بل ينتصر له في جميع ما يصدر عنه. وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه، وسجن معه في قلعة دمشق، وأهين وعذب بسببه، وأطلق بعد موت ابن تيمية. وكان حسن الخلق محبوباً عند الناس، أغري بحب الكتب، فجمع منها عدداً عظيماً، وكتب بخطه الحسن شيئاً كثيراً. وألف تصانيف كثيرة منها: (إعلام الموقعين) و(الطرق الحكمية في السياسة الشرعية) و(شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل). الأعلام، 56/6.
10. (732 هـ - 808 هـ) عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الأشبيلي، من ولد وائل بن حجر: الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي البحاثة. أصله من إشبيلية، ومولده ومنشأه بتونس. رحل إلى فاس وقرطبة وتلمسان والأندلس، وتولى أعمالاً، وعاد إلى تونس. ثم توجه إلى مصر وولي فيها قضاء المالكية، وتوفي فجأة في القاهرة. كان فصيحاً، جميل الصورة، عاقلاً، صادق اللهجة، عزوفاً عن الضيم، طامحاً للمراتب العالية. من كتبه (العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر)، وألها (المقدمة) وهي تعد من أصول علم الاجتماع، (شرح البردة)، وكتاب في (الحساب)، ورسالة في (المنطق)، و(شفاء السائل لتهديب المسائل)، وله شعر. الأعلام، 330/3.
11. ربانية لا رهبانية، ص 19.